فصل

فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعلت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً و ساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، و إنضم إليه من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يصالحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماه في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عقيب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

قال العماد: لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص، وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل إلى حلب نجدة، ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماه فحصروها وراسلوا في الصلح فقدم السلطان في خف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردّ كل ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه، وهو في عسكر خفيف قالوا: ما خبره

صحيح فشرعوا في الاشتطاط، فطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكيف ألحق به في رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصاف، وعزم الانتصاف، فعبر السلطان إلى سفح قرون حماه خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه، ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدّمين، منهم: فرخشاه وأخوه تقي الدين، والتقوا فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمت في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها غناء وبلاء حسن منها:

ولقد ألفت نفارها وهويتها
إذ ليس ينكر للظباء نفار
يا جارة للقلب جائرة دعي
ظلمي وإلا قلت جار الجار
قلبي كطرفك ما يفيق افاقة
سكران ما دارت عليه عقار
صب بصب الدمع محترق الحشا
خطرت ببال بلائه الاخطار
لم يخش من خطر الهوى حتى حمى
ذاك القوام شبيهه الخفار
يذري الدموع كأنهن عوارف
لابن الملك شيركوه غزار
من آل شاذي الشائدين بنا العلى
أركانهن لها دم وشفار
حسنت بهم للدولة الأيام والـ
ـأعمال والأحوال والآثار
قد حاز ملك الشام يوسف الذي
في مصر تغبط عصره الاعصار

نصر الهدى فتوطد الاسلام في
أيامه وتضعضع الكفار

ومنها :
لما لقيت جموعهم منظومة
صيرت ذاك النظم وهو نثار

ومنها:
في حالتي جود وبأس لم يزل
للتبر والأعداء منك تبار
تهب الألوف ولا تهاب ألوفهم
هان العدوّ عليك والدينار
لما جرى العاصي هنالك طائعا
بدمائهم فجرت به الأنهار
وتحطمت عند القرون قرونهم
بل كلت الأنياب والأظفار
عبروا المعرة مالكين معرة
والعار يملك تارة ويعار
أو ما كفاهم يوم حمص وكفهم
في بعلبك بمثلها الانذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها:
لا تفن من فرق الفراق الأدمعا
فهي الشهود على الغرام المدّعى
واستبق صبرك ما استطعت فإنه
عون لقلبك إن هما ئبتا معا

قلب أصابته العيون ولم يزل
من مسها بالها جسات مروّعا
ما باله قد صدّ عند صدودهم
عني ولما ودّعوني ودّعا
ومن التحير أنني أبصرته
في ظعنهم وسألت عنه الأضلعا
أصبحت إذ شيعتهم لثلاثة
صبري وغمضي والفؤاد مشيعا

ومنها:
أو ما اتقيتم حين رعتم سربه
فيه تقي الدين ذاك الأروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر
أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدوّ وذل بعد تعزز
لكم وحق عدوّكم أن يخضعا
من معشر غريرون جميع ما
لم يبذلوه في السماح مضيعا
في مصر واليمن اجتلينا منهم
في عصرنا تبعاً ليوسف تبعا
الحاويان بملك مصر ومكة
والشام واليمن الحظايا الأربعا
لما عصى الاعداء بالعاصي جرى
بدمائهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبي طي: لما تسلم السلطان بعلبك، وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخي سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح، وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلاً على حلب أجمعوا آراءهم، وكاتبوا

سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه، وأخبروه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل، وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشما خطيب حلب، وقطب الدين ينال بن حسان، وغرس الدين قليج، وكان سيف الدين منازلاً لسنجار، وفيها أخوه عماد الدين زنكي، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره، فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ يجيبهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك، فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيموا على حماه، وأخذوا في حصارها، واتصل بالسلطان ذلك، فرحل من بعلبك إلى حمص ، وبلغ عز الدين، فعاد عن حماه، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شيزر، وراسل النائب بحماه علي بن أبي الفوارس يقول له: إنما وصلت في إصلاح الحال، ووضع أوزار القتال، وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة،ويلم شعب الفرقه، فكتب ابن أبي الفوارس بذلك إلى السلطان، وحسن له الصلح، وتلطف في ذلك غاية التلطف، وقدم أبو صالح ابن العجمي، وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح فأجابهما السلطان إلى ما أرادوا وتقرر الأمر على أنه يردّ إليهم جميع الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدها، ويكون نائباً للملك الصالح، فلما عاين سعد الدين اجابة السلطان إلى الصلح والنزول عن جميع الحصون التي أخذها حمص وحماه وبعلبك طمع في جانب السلطان وتجاوز الحدّ في الإقتراح، وطلب الرحبة وأعمالها فقال: هي لابن عمي ولا سبيل إلى أخذها، فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعد نازلاً على حماه وحدّثه ما دار بينه وبين السلطان، وهون عليه أبو صالح أمر السلطان، وأخبره بقلة من معه، وكان

السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خف من أصحابه فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره، فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماه، وأخذ في مدافعة الأيام، حتى يقدم عليه باقي عسكره، وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها تسويفاً للأوقات، وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد، فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحداً وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر، وضري عسكر حلب والعسكر الموصلي على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام السعادة للسلطان، فإنه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهبر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم، وكان السلطان في هذه المدّة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه وحمل إليهم الأموال وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره وإلا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة، فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان، بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرب منهم، ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه أن لا يوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ولا يذففوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم، ثم سار من وقته مجدا حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة، وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماه، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرّة وكفر طاب فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه، ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه، عاد السلطان قاصداً دمشق، فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يا أيها الملك الغزير فضله
لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفا
أنك أصبحت له وليا
طارحك الودّ على شحط النوى
فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة
لم يولها قبلك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة
حتى حكته رونقا وريا

قال: ورحل السلطان من حماه إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام، وتطارح عليه وخدمه، وظنّ أن السلطان يقدّمه على عساكره فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نـزل السلطان قـرا حصار بنيـة الحصار، فجـاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقـالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماه ولا تشتموا بنا العـداه فاستـزدنا عليهم كفـر طاب والمعـرّة، واستوفينـا عليهم الأيمان المستقرّة، وسـألهم في المعتقلين أخوة مجد الدين، فـأجابوا وأفرجـوا عنهم، وتم الصلـح، وعم النجـح، ورحلنا ظـاهريـن ظافـرين، ونـزلنا حماه يـوم الاثنين ثـاني عشر شـوّال، وبها وصلـت إليـه رسـل الـديـوان العـزيـز بـالتشريفـات والتقليـد بما أراد مـن الولايـات، وأفـاضـوا على السلطـان وأقاربه الخلـع وخص ناصر الديـن محمد بن شيركوه بمـزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنـه رعاية لحق والده أسد الديـن رحمه الله، ثم تسلم السلطـان حصـن بعـريـن، وكـان بيد الأمير فخـر الـديـن مسعـود ابـن الزعفـراني، وهو مـن أكابـر أمراء نـور الديـن ، وذلك في أواخـر شوّال، وأقطع مدينة حماه لابـن خاله وصهره الأمير شهاب الديـن محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين

قـال العماد: وأذكـر أنـا عبرنـا نهر العاصي عـائديـن، وقـد انكسفـت الشمس وادلهم النهـار، وغلب على القلوب الاستشعـار وطاحـت الأنوار وخفيـت الرسـوم وظهرت النجـوم، وجئنـا حمص، ثم بعلبـك ثم البقـاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكـر ما قرره حسادي في خاطر السلطـان، وقالوا: شغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفـاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضـل، وهذا تصرّفـه برفـد جزيـل، ووجه جميـل، والسلطان مـع شدة رغبته، متـوقف، وإلى ظهـور وجه النجـاح في أمري متشـوّف، وكنت قـد أنست مدّة مقـامي بالعسكر بـذي المجد والمفخر ومورد الكـرم والمصدر الأمير نجم الدين بن مصال، وهـو ذو فضل وأفضال، وقبول واقبال، وله

من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إلى فضله ونباهته ونبله، وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرداً بسؤدده ومجده، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقى والورع والعفاف والطاعة، وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الاحسان والبرّ لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصوراً، وكان احسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً، فلما ملك أحبه، واختار قربه، فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشعراً، فمن ذلك ما كتبته إليه:

لعل نجم الدين ذا الفضل
يذكر الفاضل في شغلي
إن أجل الناس قدراً فتى
بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلى
ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأوّل ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان منها:

عاينت طود سكينة ورأيت شمس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قساً في الفصاحة معجزا
فعرفت أني في فهاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب ومائه من ساحل

وجميع ما في الأرض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل
في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل
يجري ولا جري الحسام إذا جرى
حداه بل جري القضاء النازل
نابت كتابته مغاب كتيبة
كفلت بهزم كتائب وجحافل
فعدوّه في عدوه ووليه
في عدله أكرم بعادل
ريان من ماء التقى صادٍ إلى
كسب المحامد وهي خير مناهل
يا واحد العصر الذي بذا الورى
فضلاً بغير مشابه ومشاكل
مالي وجاه الجاهلين فأغنني
عنهم كفيتهم وجد بالجاه لي
أرجوك معتنيا لدى السلطان بي
كرما فمثلك يعتني بأماثلي
قرّر لي الشغل المبجل مخليا
بالي من الهم المقيم الشاغل

قال: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه فيّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات، وحل التراجم، والعماد يفي بذلك، ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره، وأخذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي.

قال وخدمت أمير المؤمنين المستضيء بالله في ذي القعدة مع الرسل بهذه القصيدة:

أصـــح عقـــود الغـــانيـــات مـــريضهـــا
وأفتـــــك ألحاظ الحســـــان غضيضهـــــا

يقول في مديحها:
ومـــن عجـــب صلـــت لقبلـــة بـــأسهـــم
رؤوس أعـــادمـــــن ظبـــاهـــم تحيضهـــا

قال ابـن أبي طي: وظهر في مشغـرا قرية مـن قرى دمشق رجـل ادّعى النبوّة، وكان مـن أهل المغرب، وأظهر مـن التخاييل والتمويهات مـا فتن به الناس واتبعـه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السـواد وعصى على أهل دمشق، ثـم هرب مـن مشغرا في الليـل وصار إلى بلـد حلب، وعـاد إلى افساد عقـول الفلاحين بما يـريهم من الشعبـذة والتخاييـل، وهوى امـرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوّة.

قال: وفيها توفى شهاب الدين الياس الارتقي، صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

ثم دخلت سنة احدى وسبعين

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدبا، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشاً
فنسأل رب العلى أن تعيشا
من الناس بالبرصدت الكرا
م وبالبأس في البرصدت الوحوشا
وكم سرت من مصر نحو العريـ
ـش فهدّمت للمشركين العروشا
سرايـاك تبعث قدّامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العدا
ة كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال: ومدحت مستهل ربيع الأول تقي الدين بقصيدة موسومة، وكان قد فوّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما، ولم أسبق إليهما وهما:

يفيد العاقل اليقظ التغابي
ليدرك في الغنى حظ الغبيّ
ولم تصب السهام على اعتدال
بها لو لا اعوجاج في القسيّ
فقل للدهر يقصر عن عنادي
أما هو يتقي بأس التقيّ

حلفـــــت بـــــرب مكـــــة والمصلى
وثـــاوي تـــرب طيبـــه والغـــريّ (١٤٦)
لأنتـــم يـــا بنـــي أيـــوب خير الـــــ
ـــــــورى بعـــد الامـــام المستضيّ

قال: وفي أوّل هـذه السنة وصل إلى دمشق الجماعـة الذين خرجـوا من بغـداد لموافقـة قطـب الـديـن قايماز، فـأخـذوا لأنفسهـم بـالالتجـاء إلى السلطان والاحتراز، وكـان قايماز هـذا محكماً في الدولـة الامامية، من أوّل الأيام المستنجـدية، وقـوي في الأيام المستضيئيـة على وزير الخليفـة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافـه ورام اتلافه حتى استعاذ منـه بربـاط صدر الـدين شيـخ الشيوخ فسلـم به، ثـم إن قايماز خـالف الخليفـة، وشـق العصـى وعنّ لـه حصـار الـدار، فأمـر الخليفـة بالقبـض عليه، فلـم ينج لما احيط بـداره إلاّ بفتح بـاب في جداره، وانهزم فوصـل إلى الحله في أوائل ذي القعـدة سنة سبعين وهـو في موسـم الحج فجمع رجالـه وتوجه إلى الموصل وخانـه أخوانه وخذله أصحـابه فتوفي في بعـض قرى الموصـل، وتفـرّق أصحابـه في البـلاد، فمنهـم من رجـع إلى بغداد، ومنهـم من أتى الشام منهـم: حسام الـدين تمريـك، وعز الـدين اقبودي بن ازغـش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كـريماً، فأقطعه في الـديار المصريـة، وكتب في حقـه إلى الديـوان شفـاعة في تخليـص مالـه، واستقامـة حالـه، وكان ذا خـزائن مملوّه، وخيـل مسومـه، فلم يكـن ذنبه عنـدهم في متـابعـة قايماز ممـا يقبل الصفـح، وكـان اقبودي زوج أخـت السلطان، والسلطان خال بنتـه، وهي زوجة عز الدين فـرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتـب المحررة عن السلطان إلى وزير بغـداد بالمثال الفاضلي:« وما نحسب أنا مع الموالاة المتنـاصرة المستظهرة والمساعي التي كـانت لثـارات هذه الـدولة بـالغـة ولأعدائهـم دافعة، ولمنـازعيهم الأمـر

قاصمه، ولمجاذيبهم الحق واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه، وكوننا ما أعنا منهم بنجدة من رجال ولا بمادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال، يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالاجبار عندنا واسعه، والأعواض لدينا غير متعذره، والولايات التي نفوّضها إليه عن كفايته غير مستغنيّه، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولاآثر غير سلطانه سلطانا، وله إعذار لا بأس أن نعيره فيها لسانا وبيانا»، ثم ذكرها، ثم قال: «وهذا الأمير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا، وعن بقية الجماعة، فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للاسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التدبير».

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً و يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين:

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفاه لاينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحاً لما
نجيت يوم نداه من طوفانها
سمح يروح إلى الندى براحة
قد أعشب المعروف بين بنانها
وفتى إذا زخرت بحار نواله
غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه
أمضى على الأيام من حدثانها

ملـــك إذا جليـــت عـــرائس ملكـــه
رصعـــت فـــريـــد العـــدل في تيجـــانها
فـــأسلـم صـــلاح الـــديـــن وابـق لـــدولـــة
ذلـــت لـــدولتهـــا ملـــوك زمـــانها
وانهض إلى فتـــح الســـواحـــل نهضـــة
قـــادت لـــك الأعـــداء بعـــد حـــرانها

وهي طويلة.

قـال: وقام اليـوم الـذي يليـه وقد جلس السلطـان للعـدل، فأنشـده قصيدة منها:

هـــل بعـــد جلـــق إلا أن تـــرى حلبـــا
وقـــد تحلـــل منهـــا مشكـــل عقـــد
وقـــد أتتـــك كما تختـــار طـــائعـــة
وقـــد عنـــا لـــك منهـــا الحصـــن والبلـــد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أوّل مملكـة الملك الناصر، فمدحه بقصيدة طـائيه فأعطـاه ألف دينار، فمنها يصـف غارته على غـزه، وعوده من ذلك الغزو بالعزه:

فتـــى مـــذ غـــزا بـــالخيـــل والـــرجـــل غـــزة
نـــأى عـــن نـــواحيهـــا الـــرضـــى ودنـــا السخـــط
رمـــاهـــا بـــأســـد مـــا لهنّ مـــرابـــض
ولا أجـــم إلا الّـــذي تنبـــت الخط
وعـــاث ضـــواحيهـــا ضحـــى بكتـــائب
مـــن الترك لا نـــوب طعـــام ولا قبـــط

وله في السلطان قصائد (١٤٧) أخرى

قـال: وقـام البهـاء السنجاري وأنشـد الملـك النـاصر قصيـدة في دار

العدل بدمشق سنة احدى وسبعين في شعبان منها:

يا ظبية الهرمين من مصر على الـ
ـربيع السلام إذا تقوّض أو عفا
اصبو إلى عصر تقادم عهده
فأزيد من وله عليه تلهفا
أحبابنا بالقصر لو قصرتم الـ
ـهجران ما شمت الحسود ولا اشتفى
أشكو إلى الوادي فيحنو بانه
من رقة الشكوى عليّ تعطفا

ومنها:

وجرى بي الأمل الطموح فأم بي
سلطان أرض الله طرا يوسفا
الناهب الأرواح في طلب العلى
والواهب الآجال في حسن الوفا (١٤٨)

فصل

فيما تجدد للمواصلة والحلبيين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحلبيين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق الحزم، فحملوهم على النقض والنكث، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده، فلما خلا به، طالبه السلطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم وناولها إياه، فتأملها وأخفى سرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه

وردها إليه، وقال: لعلها قد تبدلت، فعرف الرسول أنه قد غلط ولم يمكنه تلافي ما فرط وقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم، وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض، وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الربيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر يعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليل إلى بغداد عن السلطان « يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها، وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يميناً جعل الله فيها حكماً، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين، مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعد على إنالة خطبنا، والإستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا، وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجه، وأردت عمراً وأراد الله خارجه، وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله أن يكون اسمه معرّضاً للحنث العظيم، والنكث الذميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والآخذ قدير، والمواقف الشريفة النبوية أعلاها الله مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقة».

ثم ذكر أمر الفرنج ثم قال:« والمملوك بين عدوّ اسلام يشاركونه في

هذا الاسم لفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهم إلا أجناده»، ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الاطراف « أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يمتثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا بنيانا، فيعضدوها إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدّس الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرّته، فإن قعدت بهم العزائم وأخذتهم في الله لومة لائم، فلا أقل من أن لا يكونوا أعوانا عليه، يلقنونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه»

قال ابن شدّاد: لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله في طاعته، وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين، واعتصم بذلك، واشتدّ سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشدّ أمره ويقوي جأشه، فراسله في الصلح فصالحه، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر، والانفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقرّ قاعدة يصل عليها إليهم، فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كبيرة عزم فيها على العود مراراً حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب، وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه وضمه إليه وبكى، ثم أمره بالعود إلى القلعة، فعاد إليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم، وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزاً، ونزل وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار

بكر، والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر، وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير، حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك، ووجهوا من كشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان ، وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال، وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوّال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسار مسارعين، فما عرجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد، ونزلنا الغسولة، وجزنا حماه وخيمنا في مرج بوقبيس، وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوّة وشدّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس، فرتب السلطان عسكره، وقوّى بقوّة قلبه قلبه، وأمدّ الله بحزب ملائكته حزبه

ولما وصل المواصلة إلى حلب أطلقوا من كان في الأسر من ملوك

الفرنج منهم أرناط ابرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك، فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر وأعدنا الاثقال إلى حماه.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مثيهم وآلافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم، ووكل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدّاه، ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدّمين، ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماه، وأطلقهم ثم نزل في السرادق السيفي، فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك، أيدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود، ورأى في بيت الشراب، بل في السرادق الخاص طيوراً من القماري والبلابل والهزاز والببغا في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فآنسه وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه، وسلم منا عليه، وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض، فتبعجت خيولهم، وتموّجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها، وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعه، وجاوز في سوقه الاستطاعه، وفرق وفارق الجماعة

وفي كتاب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرك إلى جانبها ليكون ردءا لها ومدداً فظنّ باقي العسكر أنه قد انهزم، فانهزموا

فحقق ما كان وهماً، فسار على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسير جواريه وحظاياه إلى حلب وأرسل إليه بالأقفاص، وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها الذمن مقاساة الحرب، ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره، واستعاذ من هذه البلية، وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماه، ثم ردّهم وخلع عليهم، وأرسلهم إلى حلب، وهنأ العماد للسلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي افضاله
حلوا الجنى عالي السنا وضاحه
عاد العدوّ بظلمة من ظلمه
في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه

حمل السلاح إلى القتال ومادرى
أن الذي يجني عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده
وغدا يجيد رثاءه مداحه
إن أفسد الدين الغلاة بحنثهم
فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصمما
فيهم فلاح كما رأيت فلاحه

وكــأنني بــالســاحــل الأقصــى وقــد
ســاحــت بنحــر دم الفــرنجــة ســاحــه
فــاعبر إلى القــوم الفــرات ليشربــوا الـــ
ـــموت الأجــاج فقــد طمــى طفــاحــه
لتفــك مــن أيــديهم رهــن الــرهــا
عجــلا ويــدرك ليلهــا إصبــاحــه
وابغــوا الحران الخلاص فكــم بها
حــرّان قلــب نحــوكــم ملتــاحــه
نجــوا البــلاد مــن البــلاء بعــد لكــم
فــالظلــم بــاد في الجميــع صراحــه
واستفتحــوا مــا كــان مــن مستغلــق
فيهــا فــربكــم لكــم فتــاحــه
أنتــم رجــال الــدهــر بــل فــرســانــه
ولــدى الحلــوم الطــائشــات رجــاحــه
فتــاكــه نســاكــه ضراره
نفــاعــه منــاعــه منــاحــه
وأبــو المظفــر يــوســف مطعــامــه
مطعــانــه مقــدامــه جحجــاحــه
وإذا انتــدى في محفــل فحميــه
وإذا غــدا في جحفــل فــوقــاحــه

قال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء وهو محب للفضل وأهله، باعث للخواطر على مدحه ببذله، فنظمت فيه قصيدة منها:

نصر أنــار لملككــم بــرهــانــه
وعــلا لــذلــة شــانئيكــم شــانــه
مــا أسعــد الاســلام وهــو مظفــر
وأبــو المظفــر يــوســف سلطــانــه

الملـــك مـــرفـــوع لكـــم مقـــداره
والعـــدل مـــوضـــوع بكـــم ميـــزانـــه
والـــدهـــر لا يـــأتي بغير مـــرادكـــم
فهـــل القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه
وكـــــأنما الله في أحكـــــامـــــه
فلـــك على إيثـــاركـــم دورانـــه
فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذّا الملـــوك الســـابقين رهـــانـــه
يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالاهمه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه
الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه
قـــد كـــان جيشكـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه
فطما لهلكهـــم عليهـــم بحـــركـــم
بـــأســـا وغـــرق فلككـــم طـــوفـــانـــه
فضـــل الملـــوك الأكـــرمين بفضلـــه
فعـــلا زمـــانهم البهيـــج زمـــانـــه
في فضلـــه في عـــدلـــه في حلمـــه
صـــدّيقـــه فـــاروقـــه عثمانـــه
هـــو في السماح وفي اللقـــاء عليـــه
هـــو في العفـــاف وفي التقـــى سلمانـــه

مـــن آل شـــاذي الشـــائديـــن لمجـــده
ببنيـــه بيتـــا عـــاليـــا بنيـــانـــه
بيـــت مـــن العليـــاء ســـام شـــاهـــق
يبنـــي على كيـــوانها أيـــوانـــه
يـــا ســـالـــب التيجـــان مـــن أربـــابها
ومـــن الثنـــاء مصـــوغـــة تيجـــانـــه

والحمد مال أنتم بذّاله
والمال حمد أنتم خزانه

قال: ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته، وواصل لذته، و الحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسقط في أيديهم حين أفرطوا في تعدّيهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدّوا وتلدّدوا، وتجادلوا ثم تجلدوا، وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يهنيء بها السلطان بهذه الكسره:

وما شك قوم حين قمت عليهم
غداة التقى الجمعان أنك غالب
ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى
لنفسك في نفس العدّو مقانب

قال ابن أبي طي: وأما سيف الدين فإنه امتدّت به الهزيمة إلى بزاعة، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل، وصار باقي عسكر حلب إلى حلب في سابع شوّال في أقبح حال وأسوئه، عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الأيمان والعهود، وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان وخيم عليها أياما، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والمعاقل والقلاع، فنفتحها فإنا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها فصوّبوا رأيه، فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالأمان وولاها عز الدين خشترين الكردي.

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في الثاني والعشرين من شوّال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به احسان، بل كان في جر عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولا يباذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره فسلم القلعة بما فيها، وقوّم ما كان سلمه ثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات، وسامه على أن يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره، وذهب ما جمعه، ومضى إلى صاحب الموصل فاقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين، قال العماد:

نزولك في منبج
على الظفر المبهج
ونجحك في المرتجى
وفتحك للمرتج
دليل على نجح ما
تحاول أو ترتجي
أمورك فيها تر
م واضحة المنهج
وشأنيك دامي الشؤ
ن منك شقي شجي
ومن كان في حصنه
ومن قبل لم يخرج
يقال له ليس ذا
بعشك قم فادرج
فرأيك يستنزل ال
نجوم من الأبرج

فعجـــــل عبـــــور الفـــــرا
ت وأسر وسر وأدلـــــــــج
وعـــــج نحـــــو تلـــــك البـــــلا
د وعـــــن غيرهـــــا عـــــرج
فحـــــران والـــــرقتـــــا
ن تـــــاليتـــــا منبـــــج
وجـــــل عـــــن المسلمـــــ
ـــــين ليلهـــــم المدّجـــــي

قال ابن أبي طـيّ : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصـن صعد إليه وجلـس يستعرض أمـوال ابـن حسان وذخـائره، فكـان في جملـة أموالـه، ثلاثمائة ألف دينـار، ومن الفضة والآنية الـذهبية والأسلحة والذخـائر ما يناهـز ألفي ألف دينـار، فحان من السلطـان التفانة فـرأى على الأكياس والآنية مكتوبـا يوسف، فسأل عن هـذا الاسم، فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأمـوال له، فقال السلطان أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي فتعجب الناس من ذلك.

قـال: ولما فرغ مـن منبج نـزل على عـزاز، ونصب عليهـا عدّة مجانيـق، وجدّ في القتال، وبذل الأموال.

قـال العماد: ثم نـزل السلطـان على حصـن عزاز، وقطـع بين الحلبيين وبين الفرنـج الجواز، وهو حصن منيع رفيـع فحاصره ثمانية وثلاثين يـوماً، وكان السلطـان قد أشفق على هـذا الحصن مـن موافقة الحلبيين للفـرنج فإن الغيـظ حملهم على مهادنة الفـرنج واطلاق ملـوكهم الذين تعـب نور الـديـن رحمه الله في أسرهـم، فـرجـى السلطـان أن يحتـاط على المعـاقـل ويصـونها صـون العقـائل، فتسلمها حـادي عشر ذي الحجـة بعـد مـدّة حصارها المذكورة، وقال العماد قصيدة منها:

أعطـــــاه رب العـــــالمين دولـــــة
عـــزة أهـــل الـــديـــن في اعـــزازهـــا
حـــاز العلى ببـــأســـه وجـــوده
وهـــو أحـــق الخلـــق بـــاحتيـــازهـــا
بحـــدّه أفنـــى كنـــوزاً أفنـــي الـــ
ـــــملوك في الجدّ على اكتنـــازهـــا
مهلـــك أهـــل الشرك طـــرا رومهـــا
أرمنهـــا أفـــرنجهـــا أبخـــازهـــا
تفـــاخـــر الاســـلام مـــن سلطـــانـــه
تفـــاخـــر الفـــرس بـــأبـــراوازهـــا
تهن مـــــن فتـــــح عـــــزاز نصرة
أوقعـــت العـــداة في اهتـــزازهـــا
واليـــوم ذلـــت حلـــب فـــإنها
كـــانـــت تنـــال العـــز مـــن عـــزازهـــا
وحلـــــب تنفـــــي كمشتكينهـــــا
كما انتفـــت بغـــداد مـــن قيمازهـــا
بـــــرزت في نصر الهدى بحجـــــة
وضـــوح نهج الحق في ابـــرازهـــا
كـــم حـــامـــل للـــرمـــح عـــاد مبـــديـــا
عجـــز عجـــوز الحيّ عـــن عكـــازهـــا
ارفـــع حظـــوظـــي مـــن حضيـــض نقصهـــا
وعـــدّ عـــن همازهـــا لمازهـــا
والشعـــر لا بـــدّلـــه مـــن بـــاعـــث
كحـــاجـــة الخيـــل إلى مهمازهـــا

قـال: وأغـار عسكر حلـب على عسكـرنـا في مـدّة مقامنـا على عـزاز فأخذوا على غرة وغفلـة ما تعجلوه وعادوا، فركب أصحـابنا في طلبهم فما أدركوا إلاّ فارسـا واحداً، فأمر السلطـان بقطع يده، بحكم جـرده، فقلت للمـأمور وذلـك بمسمـع مـن السلطان: تمهـل سـاعـة لعله يقبـل منـي

شفاعه، ثم قلت: هذا لا يحل، وقدرك بل دينك عن هذا يجل، وما زلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم، وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه، وسرني سلامة نفسه، ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: ما هذا الفشل والونا وإن سكتم أنتم فما أسكت أنا، ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لم لا يقتل هذا الرجل، ولماذا اعتقل،فوعظه السلطان واستعطفه، وسكن غضبه وتعطفه، وتلا عليه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (١٤٩) وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه.

فصل

في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الأحد، وهو نازل على عزاز وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتال، وهو بار ببث أياديه، قار على الدهر بكف عواديه، والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة فعاقته صفائح الحديد المدفونة في لمته عن تمكينه ولفحت المدية خدّه فخدشته، فقوى السلطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشي وبضعة وقطعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه، وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من

الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب فنادى، اقتلوني معه فقد قتلني وأذهب قوّتي وأذهلني، فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه، وخرج آخر من الخيمة منهزما، وعلى الفتك بمن يعارضه مقدما، فثار عليه أهل السوق فقطعوه، وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزئيره قسوري، ودم خده سائل، وعطف روعه مائل، وطوق كزاغنده بتلك الضربة مفكوك ونهج سلامته مسلوك، وكان سلا سلامته ، وأقام القوم قيامته ، ومن بعد ذلك رعب ورهب واحترز واحتجب، وضرب حول سرادقه على مثل خشب الخركاه تأزيرا، ووقفه تحجيرا، وجلس في بيت الخشب، وبرز للناس كالمحتجب وما صرف إلامن عرفه، ومن لم يعرفه صرفه،واذا ركب وأبصر من لايعرفه في موكبه أبعده، ثم سأل عنه فإن كان مستشفعا أو مستسعدا أسعفه واسعده، ومن كتاب فاضلي الى العادل: « السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصله، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها والركوب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سراً».

وقال ابن أبي طي: لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسلطان، فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على انفاذ من يفتك بالسلطان، فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاؤوا بزي الأجناد ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب، وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها، فبينما السلطان يوماً جالساً في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن

رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينة إلى خدّ السلطان فجرحه، وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك، ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الأرض وركبه لينحره، وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضراً، فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله، وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام، وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح علي اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً فلقيه الأمير شهاب الدين محمود خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف، وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلاّ من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر، وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها، وسألوا الأمان فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها واصلح ما تهدّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر، وكانت عزاز أوّلا للجفينة غلام نور الدين،

فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقوّاها لعله يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك، ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحجة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد، وكان سعد الدين كمشتكين في حارم، وكانت اقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها، وكان سبب خروجه إليها أن السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجاً في حارم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم، فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول : لو فسح لي في الدخول إلى حلب لسارعت في الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل أيضاً الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجاً، وقد بلغتني أمور ولا بدّ من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم فإن الذي قد حصل عندي لايمكنني الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له، وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضا الخطيب، والعماد كاتب الانشاء وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينة نصرة الدين بن زنكي.

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأي العدل ابن العجمي وجعلنا في بيت، ومنع منا غلماننا، ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح، وبتنا في أنكد عيش، وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبي المضا إلى مجلس الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود، وجماعة من

أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدّث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحاً عني ويوهم الجماعة أني وأني

وما درى الغمر بأني أمرؤ
أميز التبر من الترب
قد عارك الأهوال حتى غدا
بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدهر فلو أمه
بخطبه ماريع للخطب

قال: وعرضت نسخة اليمين علينا، وصرفنا، ولم يلتفت إلينا، فلما صارا إلى السلطان وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق نصرة الدين، وقاتل أهل حلب، ولم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل

في بواقي حوادث هذه السنة ودخول قراقوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق، وذكر ابن شداد أنه قدم في ذي الحجة.

قلت: ولما سمع السلطان بقدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوّله:«أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا»، وقال في آخره:«ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه، وغرس في القلوب ما يسرّنا ويسرّه حتى غرسه»

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها، وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال.

قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكا صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة يبق لكم، واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلا على حصن يعرف بالخضرا يحاصره، فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك، قال:كأنه هو، قال: بأي شيء استحققت منك هذا، وقد قرّبت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل اقليمك، وأراه الكتاب، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ولا يعرفه ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره، فلم يصدّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل بين يديه صبراً، فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة، ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن، وتوجه إلى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان مقامه بشبام، واستمرّ الكردي بها مدّة، ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد، واستقام أمره، وولى شمس الدولة ثغر تعز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولى قلعة تعكر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة

وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد، قتله ابن أخيه وملك بعده بصرى وصرخد شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على مايريده من اقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجوه التأويل، فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوّل عليه شمس الدولة في اليمين، وقبضه ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أن قتله.

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فأنفذ إليه من حلب عسكراً فحاصروه أياماً وسلم الحصن وصلحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأخبر أن قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عمرت وسكنها أجناد أقوياء شجعان ملكت برقة، وإذا ملكت برقة ملك ما وراءها، فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش، وقدّمه على جماعة من أجناده ومماليكه، فصار إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها، واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدّثه عن بلاد الجريد وفزان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغبه في الدخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرّم من هذه السنة فكان

يكمن النهار ويسير الليل مدّة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة، فلقيه صاحبها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها، ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرق على رجاله عشرين ألفاً، وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم، فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح، ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة، واتفق أن صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلد، ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشي قراقوش أن يقيم وحده، فرجع معهم، فلما حصل بمصر طاب له المقام، وثقل عليه العود، وزوّجه تقي الدين باحدى جواريه، وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم.

قال ابن الاثير: وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير رحمهما الله تعالى، وقد مكنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الأمور، والاطلاع على دقائق الحسبانات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية، والانشاء حيرت العقول، ووضع في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد، وكان قد زوّجه بنته، فأطلق وسار إليه وبقي بآمد يسيراً مريضاً، ثم فارقها وتوفي

بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، وردّ إليه أزمة الأمور في الحل والعقد والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي لقبه أيضا زين الدين، فكان البلد لولد زين الدين اسما لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي ابن الحسن بن عساكر، صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التنوخي الجماهري الصوفي بن الصوفي، ذكره العماد في الخريدة، وقال: كان صديقي وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدين، وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد، وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها في الحقائق وأنشدها في مجلسه:

يا مالكاً مهجتي يا منتهى أملي
يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه
حتى إذا صرت تمثالاً من الصور
أجريت في قالبي روحاً منوّرة
تمر فيه كجري الماء في الشجر
جمعت بين صفا روح منوّرة
وهيكل صغته من معدن كدر

- ٨٢٢٤ -

إن غبـــت فيـــك فيـــا فخـــري ويـــا شرفي
وإن حضرت فيـــا سمعـــي ويـــا بصري
أو احتجبـــت فسري منـــك في ولـــه
وإن خطـــرت فقلبـــي منـــك في خطـــر
تبـــدو فتمحـــو رســـومـــي ثـــم تثبتهـــا
وإن تغيبـــت عنـــي عشـــت بـــالأثـــر

obeikandl.com

ثم دخلت سنة إثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرأ كل عثرة لهم وأقالها، وأراد له الاعزاز فردّ عليه عزاز.

وقال ابن شدّاد: أخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة، سألت منه عزاز، فوهبها إياها .

قال ابن أبي طي: لما تم الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بانفاذ أخته، وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه، فقام قائماً وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يردّ عليهم عزاز فقال: سمعاً وطاعة، فأعطاها إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن له من حماه وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما اسخطه، وكان الصلح عاماً لهم، وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت في نسخة اليمين: أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بما عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة حتى يفيء إلى الوفاء

والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق، فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عند الاسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أنفارهم، وخرب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وهو متولى بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طي: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان، وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدّة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، ووصل السلطان إلى حماه، وقد استكمل الظفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الأخوان في المخيم بالميدان، وتحدّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجم

المصري أوّلها:

الشـــوق أولـــع بـــالقلـــوب وأوجـــع
فعـــلام أدفـــع منـــه مـــالا يـــدفـــع

ومنها

وحملـــت مـــن وجـــد الأحبـــة مفـــرداً
مـــا ليـــس تحملـــه الأحبـــة أجمع
لا يستقـــر بي النـــوى في مـــوضـــع
الا تقـــاضـــاني الترحـــل مـــوضـــع
فـــإلى صـــلاح الـــديـــن أشكـــو أننـــي
مـــن بعـــده مضنـــى الجوانـــح مـــوجـــع
جـــزعـــا لبعـــد الـــدار منـــه ولم أكـــن
لـــولا هـــواه لبعـــد دار أجـــزع
فـــلأركبـــن إليـــه متـــن عـــزائمـــي
ويخب بي ركـــب الغـــرام ويـــوضـــع
حتـــى أشـــاهـــد منـــه أسعـــد طلعـــة
مـــن أفقهـــا صبـــح السعـــادة يطلـــع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها، فقلت: فذكر قصيدة منها:

مـــولاي شمـــس الـــدولـــة الملـــك الـــذي
شمـــس السيـــادة مـــن سنـــاه تطلـــع
مـــالي ســـواك مـــن الحوادث ملجـــأ
مـــالي ســـواك مـــن النـــوائب مفـــزع
ولأنـــت فخـــر الـــديـــن فخـــري في العلى
ومـــلاذ آمـــالي وركنـــي الأرفـــع
الا بخـــدمتـــك المجلـــة مـــوقعـــي
والله مـــا للملـــك عنـــدي مـــوقـــع

وبغير قـــربـــك كلما أرجـــوه مـــن
درك المنـــى متعـــذر متمنـــع
للنصر إن أقبلـــت نحـــوي مقبـــل
واليمـــن إن أسرعـــت نحـــوي مسرع

قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم إلى مصر السفر.

فصل

في ذكر جماعة من الاعيان تجدّد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين إذذاك يتولى الشحنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية إلى الملك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فرمنه فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه، وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك

إرادته بادارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفر حظه من الذهب، وملكه داراً بالقاهرة نفيسة جميله جلية جليله، ورتب له وظائف، وخصه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشام وأمره جار على النظام، ولما اشتدّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جوهره العرض، أراد أن يبقى القضاء في ذويه، فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علما منه بأن السلطان يمضي حكمه لأجل سوالفه، ويجعله عنده من عوائد عوارفه، ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله، باراً بالأبرار، مختاراً للاخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام، وقد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه، وسدّد مرامي مرامه، وهو الذي سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان، فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان، وتوفي ونحن بحلب محاصرون، وذكر العماد في الخريدة لابنه محيي الدين قصيدة في مرثيته منها

ألموا بسفحي قاسيون فسلموا
على جدث بادي السنا وترحموا
وبالرغم مني أن أناجيه بالمني
واسأل مع بعد المدى من يسلم
لقد عدمت منك البرية والداً
أحسن من الأم الرؤوف وأرحم
ولا سيما أخوان صدق بجلق
هم في سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم
فما كان فيهم من يُضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفواً ورحمة
كما كنت تعفو ما حييت وترحم (١٥٠)

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن احسانه، وأبقى نواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه، وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الاحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا، والسلطان يؤثر أن يفوّض إليه منصب القضاء ولا يرى عزل الضياء، فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك.

قال العماد: وأوّل ما اشتريت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الايام النورية، فملكتها في الأيام الصلاحية.

قلت: قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار، واستمر خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلاّ فقيه يعرف بالأوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي، وكان ينوب عن كمال الدين في أمره فأمره السلطان أن يجري على رسمه ويتصرف في حكمه، وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عدته مناج، ففوّض إليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على أن يتولى محيي الدين أبو

المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد قاضيين في دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء منفرداً بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملك المعظم فخر الدين، فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره، وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوّض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه، واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صرف واستقل به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين ابن الزكي فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدّسي رحمه الله، وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع، من أصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النسابورى رحمه الله، ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله « الحمد لله وبه توفيقي»

قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول إلى دمشق توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق وهو أوّل خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية، وكان يتولى الرسالة إلى الذيوان العزيز، ويقصده الشعراء، ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرب

ولده وجبر بتربيته يتمه، ثم تعين ضياء الدين ابن الشهرزوري بعده للرسالة إلى الديوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السلطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشام فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبه، وهو متودّد إليّ بصفاء المحبة.

وفيها في آخر صفر تزوّج السلطان بالخاتون المنعوته عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله، فلما توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر مستقلة بأمرها، كثيرة الصدقات، والأعمال الصالحات، فأراد السلطان حفظ حرمتها وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين ابن أبي عصرون وعدوله وزوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، بإذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها، وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقد وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام، ولم يزل بنو منقد ملاك شيزر وقد جمعوا السيادة والمفخر، ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه لم يرد أن يكون معه فيه سواه، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد، وكلهم من الأجواد الأمجاد وما فيهم إلاّ ذو فضل وبذل، واحسان وعدل، وما منهم إلاّ من له نظم مطبوع، وشعر مصنوع ومن له قصيدة، وله مقطوع، وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم بالأدب، وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر وقتل عباس

وزيرهم أخوته وإقامة المنعوت بالفائز، وما ردف ذلك من الهزاهز، فعاد مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها، ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال:

حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأني حييت إلى أن لقيت بعد
د العدوّ صديقا حبيبا

قال: وكنت أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبه، وأنشدني له مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه في سنّ قلعها:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظريّ افترقنا فرقة الأبد

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيها لنفسه، مع كثير من شعره المبتكر من جنسه.

قلت: ومن عجيب ما اتفق أني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الاطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قرأت في ديوانه وقال في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي
أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري
ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو ببثي من خال بوجنته
مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال: « لم ألقه مذ تصاحبنا «البيت، فالأشبه أن ابن منير أخذهما، وزاد عليهما، ولهذا غير فيهما كلمات، وقد وجدت هذا البيت الأوّل على صورة أخرى حسنة: « وصاحب ناصح لي في معاملتي»، ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك، ويجوز أن يكون اتفاقا، والله اعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفاً، وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر، فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعرة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً، وإذا كان بدمشق جالسه وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه، وكان ذا رأي وتجربه وحنكة مهذبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحل مشكلاته، وبلغ عمره ستا وتسعين سنة فإن مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدم من أخباره في قتل الأسد في شبيبته أيام كونه بشيزر، وذكرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأوّل

قال العماد: لما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب، وتقدّمه الأمراء والملوك، وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصفر، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت منزلاً إلاّ نظمت أبياتاً فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره:

أقول لركب بالخيارة نزل
أثيروا فمالي في المقام خيار
هم رحلوا عنك الغداة وما درروا
بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه
وفي القلب من نار الغرام أوار
أجيروا من البلوى فؤادي فعندكم
ذمام له يا سادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع

رأيتني بالفقيع منفردا
أضيع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر
مني فيا غبن صفقة البائع
صبري والقلب عاصيان وما
غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفوار:

تحدّر بالفوار دمعي على الفور
فقلت لجيراني أجيروا من الجور
وأصعب ما لاقيت أني قانع
من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:

ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا
أنامل تدمي حيرة للتندّم
أعدّتك يا زرقاء حمراء إنني
بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبي عندهم متخلفا
وخالفتهم في عزمتي والتقدّم
فياليت شعري هل أعود إليهم
وهل ليت شعري نافع للمتيم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك، وفيها تختطف الأفرنج القاصدين إلى مصر

طريق مصر ضيق المسلك
سالكه لاشك في مهلك
وحب مصر صار حبالمن
أوقعه في شبك الشوبك
لكنها من دونها كعبة
محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يشكي الذي
إليه من أيامه يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب، واتفق أن السلطان سير إلى مصر

الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعي من شاديه إلا إنشا
ناديه، ويطرب لسماعها ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله
كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي، وهي هذه:

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر
ولكن لمقدور أتيح من الأ
وأعلم أني مخطيء في فراقكم
وعذري في ذنبي وذنبي في عـ
أرى نوبا للدهر تحصى ولا أرى
أشدّ من الهجران في ثوب الد
بعيني إلى لقياكم غشاوة
وسمعي عن نجوى سواكم لذو
وقلبي وصبري فارقاني لبعدكم
فلا صبر في قلبي ولا قلب في ص
وإني على العهد الذي تعهدونه
وسري لكم سري وجهري لكم جه
تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم
وها أنا في صحوي نزيف من الس
وإن زمانا ليس يعمر موطني
بسكناكم فيه فليس من العم
وأقسم لو لم يقسم البين بيننا
جوى الهم ما أمسيت مقتسم الف
أسير لإلى مصر وقلبي أسيركم
ومن عجب أسري وقلبي في
أخلائي قد شط المزار فأرسلوا الـ
ـخيال وزوروا في الكرى وارحموا أج
تذكرت أحبابي بجلق بعدما
ترحلت والمشتاق يأنس بالذ
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فأسبلت دمعي للبكاء على ص

ولما قصدنا من دمشق غباغبا
وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعي
ففاضت وباحت بالمكتم من سري
سرينا إلى الزرقاء منها ومن يصب
أواماً يسر حتى يرى الورد أو يسري
تذكرت حمام القصير وأهله
وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من
مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي يابسة الثرى
بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمد الحصى
ومن يرتجى ريا من الثمد النزر
فقلت اشرحي بالخمس صدراً مطيتي
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة أننا
إلى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عيني على فيض عبرة
أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا إلى أرض الدير وجنة
هنالك من طلح نضيد ومن سدر

وجبنا الفلا حتى أصبنا مباركا
على بركة الجب المبشر بالقصر
ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي
بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلي
فيا خجلتي من أم عمرو ومن عمرو
تقول إلى مصر تصير تعجبا
وماذا الذي تبغي ومن لك في مصر
فقلت: ملاذي الناصر الملك الذي
حصلت بجدواه على الملك والنصر
فقالت أقم لا تعدم الخير عندنا
فقلت وهل تغني السواقي عن البحر
ثقي برجوع يضمن الله نجحه
ولا يقتضي أن نبدل العسر باليسر
عطيّته قد ضاعفت منه الرجا
ونعمته قد أضعفت منة الشكر

قال: وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأوّل بالزي الأجمل، والعز الأكمل، وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صدر، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسر وتلقانا حيز مصر ، ووصلت إلينا ثمراتها، وجليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها

وزاد اغتباطها، ودخل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمور ايراده واصداره، وكانت قد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها لقلة الوثوق بأني أحصل بمثلها، فنظمت يوم خروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد ابن شيركوه منها:

بمهجتي خنت العطف مستلذ الدلال

يقـــــول لي بـــــانكســـــار
ورقـــــة واعتـــــلال

معـــاتبـــا بحـــديـــث
أصفـــى مـــن السلســـال

مـــا مصر مثـــل دمشـــق
بعـــت الهدى بـــالضـــلال

فقلـــت عنـــت أمـــور
عجيبـــة الأشكـــال

أسير في طلـــب الـــ
ـــعز مثـــل سير الهلال

لم يبلـــغ البـــدر لـــو لا الـــ
ـــمسير أوج الكمال

وكيـــف أتـــرك شغلي
وإنـــه رأس مـــالي

صـــلاح حـــالي صـــلاح الـــ
ـــدين الغـــزيـــر النـــوال

مـــالي أفـــارق ملكـــا
ملكتـــه أمـــالي

يـــا نـــاصر الـــديـــن قلبـــي
عليـــه في بلبـــال

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة وسيدهم المولى الأجل الفاضل، وقد مدحه بقصيدة منها:

كيـــف لا يغتـــدي لي الـــدهـــر عبـــداً
وأنـــا عبـــد عبـــد عبـــد الـــرحيـــم

بـــدوام الأجـــل سيـــدنـــا الفـــا
ضـــل يـــا دولـــة الأفـــاضـــل دومـــي

إذ أراه ينـــوب عنـــي لـــدى المـــ
ـــلك منـــاب الأرواح عنـــد الجســـوم

مـالـك الحل في المالـك والعقـ
ـد وحكـم التحليـل والتحـريـم

معمـل للنفـاذ في كـل قطـر
قلماً حـاكماً على اقليـم

يتلقـى الملـوك في كـل أرض
كتبـه القـادمـات بـالتعظيـم

نـاحـل الجسم ذو خطـاب بـه يصـ
ـغر الـدهـر كـل خطـب جسيم

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وهما ابنا أخي السلطان، وهو شاهنشاه بن أيوب، وهمام الدين بزغش الشنباشي والي القاهرة، ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها:

شـادن كـالقضيـب لـدن المهـزه
سلبـت مقلتـاه قلبـي بغمـزه

كلما رمـت وصلـه رام هجـري
وإذا زدت ذلـة زاد عـزه

للصبـا مـن عـذاره نسـج حسـن
رقـم المسـك في الشقـائق طـرزه

وعـزيـز عليّ أن اصطبـاري
فيـه قـد عـزه الغـرام وبـزه

مـا رأى مـا رأيـت مجنـون ليلى
في هـواه ولا كثير عـزه

مـا ذكـرنـا الفسطـاط إلاّ نسينـا
مـا رأينـا بـالنيربين والارزه

فمهـا الجيـزة الجوازي لها الميـ
ـزة حسنـا على ظبـاء المزه

ونصيري عليـه نـائل عـز الـديـن
ذي الفضـل خلـد الله عـزه

ومنها

فـــرّغ الكنـــز مـــن ذخـــائر مـــال
مـــالئـــا مـــن نفـــائس الحمـــد كنـــزه
همة مستهـــامـــة بـــالمعـــالي
للـــدنـــايـــا أبيـــة مشمئـــزه

قال العماد: وتوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزه في الجزيرة والجيزه، والأماكن العزيزة، ومنازل العز والروضة، ودار الملك والنيل والمقياس ومرامي السفن ومجاري الفلك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الاحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين ابن الشهروزوري أن يفرجنا في الاهرام، فقد شغفنا بأخبارها في الشام، فخرج بنا إليها ودار بنا حواليها ودرنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري، وأحمدنا المقار والمقاري، وهالنا أبو الهول، وضاق في وصفه مجال القول، ورأينا العجائب، ورؤينا الغرائب، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكل يأتي في وصفهما بما نقله لا بما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهم حدوده، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسمار الأخبار بذكر حديث أجداث عاده وثموده، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه في بأسه وجوده، وأن في الأرض الهرمين، كما أن في السماء الفرقدين وهما كالطودين الراسخين، وكالجبلين الشامخين، قد فنيت الدهور، وهما باقيان، وتقاصرت القصور، وهما راقيان، وكأنهما لأم الأرض ثديان، وعلى ترائب التراب نهدان، ولسلطان العالم علمان، وإلى مراقي الأملاك سلمان، وهما لليل والنهار رقيبان، ولرضوى ولشمام نسيبان، ومن

زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان، ولشخص الكرة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان، فذكر منهم الناصح مؤدّب أولاد السلطان، وله دار مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دار أيضاً على شاطىء النيل برسم ضيافة من نزل به، قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده.

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف، مفهرسة بالمعروف، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر، والحال والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث، وتساوى سمينها والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا درية له بأسفار الأدب، وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها، ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغربت من مساكنها، وخربت أوكارها، وذهبت أنوارها، وشتت شملها، وبت حبلها، واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزأ مجلداً، إذا فقد منها جزؤ لا يخلف أبداً، فاختلطت واختبطت، فكان الدلال يخرج عشرة

عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بالدون، وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدّة، وما فيها من عدّة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتاباً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيت الأمر حضرت القصر، واشتريت كما اشتروا، ومريت الأطباء كما مروا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم علي بها وأبرأ ذمتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة، انتقيت له من القصر، وهو ينظر في بعضها، وبسط يدي لقبضها، قال: وكنت طلبت كتباً عينتها فقال: وهل في هذه شيء منها؟ فقلت: كلها وما استغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال:وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب وتكمل فيه الحساب، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بجبل

مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة،ووظائف نفقاتها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستانا للمرضى، وأستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهب إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأدّاها.

فصل

في خروج السلطان إلى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية، ثم وصلنا إلى ثغر الاسكندرية، وتردّدنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر، وشاهدنا ما استجدّه السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:

يوماً بحيّ ويوماً في دمشق وبالـ
ـفسطاط يوماً ويوماً بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصب ما خلقا
إلا ليقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يا باخلاً عند الوداع بوقفة
لو سامني روحي بها لم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل
تركك الفؤاد بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته
مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسر مرتحلا ففي أسر الهوى
قلبي لديك مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادي المبتلى
إذ كنت أنت معذبي والمبتلي

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود:

نزلت بأرض المنيتين ومنيتي
لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي
سأبلى ولا تبلى سريرة ودّكم
وتؤنسني إن مت في وحشة اللحد

قال: وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره، وإفاضة الجود واغزاره، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره، وإشاعه العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعار الشرع وإظهاره وابقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائحي في السلطان ما أنشدته إياه سادس شوّال:

فـــديتـــك مـــن ظـــالم منصـــف
ونـــاهيـــك مـــن بـــاخـــل مسرف

ومنها:

أيبلـــغ دهـــري قصـــدي وقـــد
قصـــدت بمصر ذرا يـــوســـف
ويـــوســـف مصر بغير التقـــى
وبـــذل الصنـــائع لم يـــوصـــف
فسر وافتـــح القـــدس واسفـــك بـــه
دمـــاء متـــى تجرهـــا ينظـــف
وإهـــد إلى الاسبتـــار البتـــا
روهـــدّ السقـــوف على الأسقـــف
وخلـــص مـــن الكفـــر تلـــك البـــلا
د يخلصـــك الله في الموقـــف

وفيها وصل رسل المواصلة، وصاحبي الحصن وماردين إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طي: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمه السلطان واحترمه، وقدم بعده رسول نور الدين قر ا أ رسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج فأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزان باسرها.

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لإرهاب العدوّ، وهو يركب للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص، واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة فقلت:

مولاي عز الدين فرخشه
الدهر من برجك لا يخشه

ومنها:

تلقاه سمح الكف دفاقها
طلق المحيا كرما بشه
إن شئت فوتابا لردى فالقه
أوشئت فوزاً بالعلى فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيد في
حرزي لهاه والعدى بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت
إلا جعلتم عرشه نعشه
خوّفتم الشرك فلا قمصه
أمنتم يوما ولا فنشه
أورثك السؤددي ابن العلى
والدك السيد شاهنشه

وقال في الخريدة: كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدّة من وصل في قيد الاسار، فحضر ابن رواحة منشداً مهنئاً بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضاً بما وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد قصيدة منها:

لقد خبر التجارب منه حزم
وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل براً
وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجواري بالجواري
يمدن بكل قدمر جحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً
فمريان يبوح على مرن
زهت اسكندرية يوم سيقوا
ودمياط إلى المينا بغين
يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجعوا أتاهم بعدوهن
أبادهم تخوفه فأمسى
مناهم لو تبيتهم بأمن
تملك حولهم شرقاً وغرباً
فصاروا الاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوب رباطا
رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجا أقصى الملوك السلم منهم
ولم يرجهده في البأس يغني (١٥١)

وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين ـ يعني ـ قايماز دزدار قلعة الموصل في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان، وكلاهما متجاوران، قال: وتوفي في شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية،

وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع و ثمانين وأعيد إلى ولايتها بعد الافراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصله من أعمال شبختان، وأخذ منها وهو طفل، وكان عاقلاً خيراً ديناً فاضلا، تعلم الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصوم، وله ورد يصليه كل ليلة، ويكثر الصدقة وبنى عدّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عدّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: تنزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد بن مماتي إليّ قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريم الخيم في الخيم
أهيف كالريم ذو شمم
عجبي للشمس إذا طلعت
منه في داج من الظلم
كيف لا تصمي لواحظه
ورماة الطرف في العجم
لا تصد قلب المحب لكم
لا يحل الصيد في الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا
مذ براه الله للأمم
أضحت الكفار في نقم
وغدا الاسلام في نعم
إن يك الشطرنج مشغلة
لعليّ القدر والهمم

فهـــي في نـــاديـــك تـــذكـــرة
لأمـــــــور الحرب والكـــــــرم
فلكـــم ضـــاعفـــت عـــدّتها
بـــالعطـــاء الجســـم لا القلـــم
ونصبـــــــت الحرب نصبتهـــــا
فـــاثنـــت كفـــاك بـــالفمـــم
فـــابـــق لـــلاقـــدار تـــرفعهـــا
وأمـــر الاقـــدار كـــالخدم[١٥٢]

وفيها تـوفي بالاسكندرية القـاضي الشريف أبو محمـد عبد الله العثماني الديبـاجي، مـن ولد الـديباج محمد بـن عبد الله بـن عمرو بـن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي اليـاس، من بيت القضاء والعلم، وكان واسع الباع في علم الأحاديـث، كثير الرواية قيما بالأدب، متصرفاً في النظم والنثـر إلا أنه مقل من النظـم، أوحد عصره في علم الشروط وقـوله المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة.[١٥٣]

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسلطان مخيم بمرج فاقوس، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أوّلها:

ريم هضيم يروم هضمي
من سقم عينيه عين سقمي
إن رمت باعاذلي صلاحي
فخلني والهوى وزعمي
لو مسك يذكي الغرام قل لي
أنت نصحي أم أنت خصمي
أيازماني الغشوم أقصر
إنك لا تستطيع غشمي
عبد الرحيم أضحى
عوني على خطبك الملم
الفاضل الأفضل الأجـ
ـل المفضل الأشرف اللأشم
غيث غياث وجود جود
وبحر علم وطود حلم
يراعه في اليمين منه
تستخرج الدرّ من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرم علم الدين الشاتاني، وهو من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر وأهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين فرخشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رفده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها:

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا
فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى (١٥٤)

قلت: لم يـذكر العماد من هذه القصيـدة غير هذا البيت، وإنـه لقائم مقام قصائد كثيرة، والشـاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيـد، له ترجمة في تاريخ دمشق، وذكره العماد في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة

يمينـــك فيهـــا اليمـــن واليسر في اليسرى
فبشرى لمن يـــرجـــو النـــدى منهما بشرى

قال العماد: وكانت الاعلام السلطانية صفراء لا يفارق نشرها نصراً

قلت:وفيها يقول بعض الفضلاء:

وأســـود خطـــب دونـــه الموت أحمر
أتـت بـالأيـادي البيـض أعـلامـه الصفـر
فمـذ ظهـرت منصـوبـة جـزمـت بها
ظهـور العـدى مـن رفعهـا انخفـض الكفـر
واضحـت تجوز الأرض شرقـا ومغـربـا
ولله في إعـــــلاء رتبتـــــه سرّ

وقال العماد: عـاد السلطان إلى القـاهرة، وأقام بها ثـم اهتمت بـالغزاة همتـه إلى غـزة وعسقلان، فخـرج يـوم الجمعـة ثالـث جمادى الأولى بعـد الصلاة، وخيـم بظاهـر بلبيس في خـامسه بخميسـه، ثم تقـدّمنا منـه إلى السـديـر، وخيمنا بـالمبرز ثـم نـودي خـذوا زاد عشرة أيام أخـرى زيـادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال العماد: فـركبت إلى سـوق العسكر لـلابتياع، وقـد أخذ السعـر في الارتفاع، فقلـت لغلامـي قد بدا لي وقـد خطر الرجـوع من الخطـر ببالي، فـاعرض للبيـع أجمالي وأثقـالي، وانتهـز فرصـة هـذا السعـر الغالي، وأنـا صاحب قلـم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هـذه الغزوة من عاقبـة ندم، والمدى بعيد، والخطـب شديد، وهذه نـوبة السيوف لا نـوبة الأقـلام، وفي سلامتنـا سلامـة الاسلام، والـواجب على كـل منا أن يلـزم

شغله، ولا يتعدّى حدّه ولا يتجاوز محله، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قلة العدّة، وأظهرت سري للمولى الأجل الفاضل، فسره ذلك اشفاقا علي واحسانا إليّ، وكان السلطان أيضاً يؤثر ايثاري، ويختار اختياري فقال لي: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعود وتدعو لنا وتسأل الله أن يبلغنا من النصر سؤلنا، وكنت قد كتبت أبياتا إلى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر:

قيل في مصر نائل عدد الرمـ
ـل ووفر كنيلها الموفور
فاغتررنا بها وسرنا إليها
ووقعنا كما ترى في الغرور
وحظينا بالرمل والسير فيه
ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا إلى المبرز نشكو
سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لي سر إلى الجهاد وماذا
بالغ في الجهاد جهد مسيري
ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قو
سي يرى موتوراً إلى موتور
أنا للكتب لا الكتائب إقدا
مي وللصحف لا الصفاح حضوري
كاد فضلي يضيع لو لا اهتمام الـ
ـفاضل الفائض الندى بأموري
فأنا منه في ملابس جاه
رافلاً منه في حبير حبوري
فهو رقى من الحضيض حظوظي
وسمابي إلى سرير السرور

وقال: وما انقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة، وقد

عظم الله فيها من النبوة، وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة، والسعادات فيها مجدّدة، وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت وتشوّقت إلى أصدقائي وتشوّشت، وكتبت من المخيم ببلبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وقد أقام بالقاهرة وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان، فكتب في الجواب: رافقه ولا تفارقه، فكرهت رأيه فكتبت إليه:

إذا رضيتم بمكروهي فذاك رضا
لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي
فإنني مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبي فصرت له
متعذبا استلذ الهم والمضضا
أصبحت ممتعظاً من أجل أني لا
أرى صديقاً لما ألقاه ممتعضا
إن رمتم عوضاً بي في محبتكم
فحاش لله أن أبغي بكم عوضا
لله عيش تقضى عندكم ومضى
وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندكم
والقلب محترق مني بجمر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
حسبت أن ودادي عندكم رفضا
قد أظلم الأفق في عيني لغيبتكم
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا
ولست أول صب من أحبته
لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شئتم من محنة وأذى
فقد رأيت امتثال الأمر مفترضا

طـوبي لكـم مصر والـدار التـي قضيـت
فيهـا المآرب والعيـش الـذي خفضـا
بعيشكـم إن خلـوتـم بـانبسـاطكـم
تـذكـروا ضجـراً بـالعيـش منقبضـا
رضيتـم سفـري عنكـم واعهـدكـم
بسفـرتي عنكـم لا تظهـرون رضـا
هـلا تكلفتـم قـولاً أسر بـه
هيهـات جوهـركـم قـد عـادلي عـرضـا
تفضلـوا واشرحـوا صـدري بقـربكـم
أو فـاشرحـوالي ذا المعنـى الـذي غمضـا

فكتب إلي في جوابها أبياتا منها:

لاتنسبـوني إلى ايثـار بعـدكـم
فلسـت أرضـى إذا فـارقتكـم عـوضـا
ولي وداد تـولى الصـدق عقـدتـه
فما تـراه على الأيـام منتقضـا
يلقـاك قلبـي على سبـل العتـاب لـه
بصحـة ليـس يخشـى بعـدهـا مـرضـا
صرت كـالـدهـر يجنـي أهلـه أسفـا
ويلتقـي مـن عتـاب المذنـب المضضـا

قال: ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت